

مستقبل الأسرة في ظل تجاوزات تطبيقات الهندسة الوراثية The Future of the Family in Light of the Excesses of Genetic Engineering Applications.

الباحثة: مانع خديجة

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم، الجزائر

تاريخ القبول: 2020/04/10

تاريخ الاستلام: 2020/03/01

تاريخ النشر: 2020/07/30

الملخص:

إنّ جعل الانسان محور الأبحاث البيولوجية والتقنيات العلمية شكل منه مادة سلسة، يمكن التجريب عليها، مثلها مثل أي مادة جامدة، وإن كان هذا التجريب أثر بصورة إيجابية كبيرة في إيجاد الحلول لكثير من المشكلات خاصة تلك التي قدمتها الهندسة الوراثية في معالجة الأمراض، إلا أنها أفرزت معها إشكاليات أخلاقية متعددة الجوانب خاصة تلك المتعلقة بتغيير التركيب الأسري وتطوير النوع الإنساني، وستحاول هذه الدراسة التنبيه إلى ما يمكن أن تحمله تقنيات وتطبيقات الهندسة الوراثية من تجاوزات أخلاقية على الأسرة.

الكلمات المفتاحية: الهندسة الوراثية، الحمض النووي، التركيب الأسري، الأخلاق. القدسية.

Abstract:

Making a person focus of biological research and scientific techniques has made it a smooth subject, end it is possible to experiment with it like any other solid matter, and if this experiment has effected a great positive way in finding a solution, especially for those who have found the solution. Moral problems are multifaceted especially those related to changing the family, structure and the development of human species. In this study, I will try to warn of the potential abuse of genetic engineering technology and the applications of genetic engineering on the family.

Keywords : Genetic engineering, DNA, family, Moral, Sanctity.

مقدمة:

شكلت التغيرات والتطورات العميقة في علم الأحياء (البيولوجيا) ثورة علمية هائلة في القرن الواحد والعشرين، اعتبرها البعض تحولاً جذرياً في مجال العلم، سميت هذه الثورة بالثورة البيولوجية، تجلت نتائجها في التأثير على العوامل الوراثية للإنسان، وفي الأبحاث المتعلقة بمشاكل العقم والإنجاب، وتحديد الصفات الوراثية للفرد وتخليق المواليد الصناعيين وتحسين النسل، الأمر الذي يوحي لا محالة أن الكثير من المفاهيم ستتغير وفقاً لتغير التراكيب الأسرية والاجتماعية نتيجة لهذه الاكتشافات السابقة من نوعها. فهل ستتغير نتائج هذه الاكتشافات مفهوم العائلة، أم ستقوم بتفكيكها والقضاء عليها؟ كيف نفهم مستقبل الأسرة في ضوء هذه التطبيقات الهندسية؟

إذا كانت نظرية التطور التي قدمها داروين في علوم الأحياء قد شكلت طفرة علمية هزت أسس المعرفة العلمية التي ألفها العلماء والبشر منذ قرون، فإن الثورة البيولوجية وما قدمته من أبحاث علمية واكتشافات بفضل التقنية التكنولوجية لم تكتفي بزعزعة أسس المعرفة الإنسانية، إنما مست بحياة الإنسان اليومية وقواعده الأخلاقية، خاصة فيما يتعلق بمفاهيم الحياة والموت. هي إذن أزمة أسس، لكن ليست مثل أزمة الأسس في الرياضيات أو الفيزياء، هي أزمة أسس إتيقية إنسانية. فالعلوم التي أنتجها العقل الإنساني لتحقيق رفاهيته، وحياته وسلامته، أصبحت تشكل تهديداً له وبمساعده هو، وبطموحات البعض من العلماء في "تحويل النوع الإنساني وتطويره"¹.

¹ - مشروع الترانس: (الإنسان المستزاد)، يقول راي كورتسيفل أحد دعاة الترانس: "نود أن نصبح أصل المستقبل، نود أن نغير الحياة، نود أن نخلق أنواعاً جديدة من الكائنات، أن نساهم في بناء البشرية، أن نختار مكوناتنا الحيوية، أن ننحت أجسامنا ونفوسنا، أن نروض جيناتنا، أن نلتهم ملذات تحويل خلايانا الجينية، أن نهب خلايانا الجذعية، وأن نبصر الألوان ما تحت الحمراء، وأن نسمع الموجات الصوتية الرفيعة، أن نستشم جيناتنا، وأن نستبدل خلايانا العصبية، وأن نمارس المتعة الجنسية في الفضاء، وأن نجاذب أناساً آليين أطراف الحديد، وأن نمارس الاستنساخ إلى ما لا نهاية وأن نضيف لنا حواساً جديدة، وأن نعيش قرنينين أو أكثر، وأن نستوطن القمر، وأن نخاطب المجرات،...". سبيلا محمد: الثورة البيوتكنولوجية المعاصرة وآفاقها الفلسفية، مجلة

الهندسة الوراثية حلول و آفاق:

قسم العلماء الثورة البيولوجية إلى أربع مراحل أساسية، أولها علم الحياة الجزيئية **Biologie moléculaire**، وهو علم يحاول فهم آليات الحياة على مستوى الجزيئات والمفاعل بينها، ثم تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة الحياة الخلوية **Biologie cellulaire** وتهتم بدراسة العلاقات داخل الخلايا نفسها وبين الخلايا بعضها ببعض، والمرحلة الثالثة وهي علم الغدد الصم العصبية والبحث فيها يتعدى من الاتصالات داخل الخلايا وبينها إلى اتصالات الأعضاء ببعضها البعض. والمرحلة الرابعة وتعد أهم مرحلة من مراحل تطور علم الأحياء وأحدثها وهي مرحلة الهندسة الوراثية **la génie génétique**¹، وتعتبر هذه المرحلة أكثر المراحل جاذبية وإثارة للخلاف بين جموع العلماء والفلاسفة، وغيرهم من المهتمين بمستقبل الإنسانية. هذه التكنولوجيا الحيوية الجديدة تتيح لنا التحكم بالجينات، الاستنساخ الحيوي، وكذا إعادة تركيب الحمض النووي المنقوص الأوكسجين الذي يحمل الصفات الوراثية للإنسان، وهذا الحمض هو بمثابة الرسوم أو التصميمات الهندسية التي توجه عملية إنتاج البروتينات وهي المواد الأساسية للحياة². تركيبة حمض الدنا (DNA)، تجعله قادرا على أن يحمل في طياته نوعا من الشفرة أو المورثة التي تمكن العلماء من تفسير الكثير من خفايا الجسم الإنسان والعمليات الحيوية، وبالتالي التعرف على كثير من أسباب الأمراض الوراثية.

الفصل، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2018م، ص 03، الموقع الإلكتروني: <https://www.alfaisalmag.com/?p=12993> تاريخ التصفح: 2019/12/14م، التوقيت: 21:34.

1 - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990م، ص 26.

2 - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، ص 31.

ظهر هذا الاكتشاف على سنة 1953م، على يد كل من العالمين فرنسيس كريك Francis Crick، وجيمس واتسون James Watson، حيث اتضح أنّ الدنا (DNA)، يتألف من السكر، الفوسفات والقواعد الأزوتية. وهو عبارة عن شريطان يتخذان شكل الحلزون، وكل شريط يحمل المعلومات اللازمة لبناء البروتينات لتوجيه العمليات الحيوية التي يؤدي مجموع تفاعلها في النهاية إلى تكون الكائن الحي¹. فتح هذا الاكتشاف الباب الواسع للولوج إلى جوهر الكائنات الحية ومعرفة وظائف الأعضاء، وكذا معرفة الرموز الوراثية الموجودة في الخلية الأم.

وقد توصل علماء الأحياء من خلال برامج الهندسة الوراثية إلى تخليق أجزاء من البرنامج الوراثي "الأنسولين" بعدما كانت تؤخذ من الحيوانات مما كان يكلف الكثير من الوقت ويتسبب في ارتفاع سعر الدواء. كذلك استطاع العلماء تصنيع مجموعة من الإنزيمات تساعد على إزالة الجلطات التي تصيب الإنسان في الشرايين، المخ والرئة. مكنت تكنولوجيا الهندسة الوراثية الأطباء من حل مشاكل مستعصية لا طالما وقفت في وجه الأزواج والأسر كمشكلة العقم مثلا وذلك عن طريق حل وإن اعتبره العض مؤقتا ومحل نقاش وهو أطفال الأنابيب² Bébés-éprouvette، ويأمل الباحثون من خلال الهندسة الوراثية إلى تخليص الإنسان من الأمراض الوراثية المرتبطة بالخلايا كمرض النزف الدموي، والتخثر الدموي، ضمور خلايا المخ، الأنيميا الوراثية، وحتى

¹ - النشار مصطفى: الفلسفة التطبيقية، الدار المصرية السعودية للطباعة والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص301.

² - أطفال الأنابيب: هي تقنية ظهرت بفضل جهود العلماء في مجال الهندسة الوراثية. وهي عملية إخصاب البويضة بالحيوان المنوي في أنابيب الاختبار، بعد أخذ البويضات الناضجة من المبيض لتوضع مع الحيوانات المنوية الجيدة فقط بعد غسلها حتى يحصل الإخصاب. ثم تعاد هذه البويضة إلى رحم الأم، تستغرق هذه العملية من يومين إلى خمسة أيام، وهذه الطريقة تعطي الخيار الأفضل لاختيار أحسن الأجنة لنقلها إلى الأم بعد إخصابها خارج الرحم، وتعطي كذلك مجالا أكبر لاحتمال الحمل في الدورة الواحدة، لأنه يمكن نقل أكثر من جنين واحد داخل رحم الأم.

عمى الألوان...، والكثير من الأمراض التي تنشأ جراء خلل في جزء من البرنامج الوراثي أثناء تكون الجنين، وتحسين النسل عن طريق الماسح الطيبي الوراثي الذي يُجرى على الحوامل لتحديد الصفات الوراثية للأجنة والتعرف على صحتها واكتشاف ما تعانیه قبل الولادة¹.

تخليص الإنسانية من الألام والأمراض خاصة المستعصية منها شكلت هاجسا كبيرا لدى الأطباء والباحثين والناس عامة منذ فترة زمنية كبيرة، لذلك ساهمت الهندسة الوراثية في إيجاد علاجات كثيرة لها، ما يجعل منها أفقا رحبا ومجالا بحثيا إيجابيا طور من خلاله العلماء تقنيات البحث الطيبي والبيولوجي.

ونتيجة لكثرة الأبحاث والدراسات العلمية وسعها إلى تحقيق مصلحة الإنسان تجاوزت حدود المعقول ووصلت إلى ما يسمى بالاستنساخ² Clonage، كل هذه الأبحاث الهندسية ستبرز نتائجها إلى السطح بقوة، وستؤثر على الإنسان ابتداءً منه كفرد له قدسية إلى كونه مؤسس لكيان أسري وتركيب اجتماعي مترابط. فمن حق كل مطلع على منجزات الثورة البيولوجية عامة وعلى الهندسة الوراثية خاصة أن يتساءل عن مدى التأثير الذي يمكن أن يبلغه التدخل في الوراثة البشرية؟ أفلا يؤدي هذا التدخل إلى تغيير مفاهيم حياة الإنسان الاجتماعية وركائزها الأساسية، خاصة الأسرة والتي تعد أهم ركيزة تبنى عليها الحياة الإنسانية.

الأسرة بالنسبة للفرد هي المنزل الذي يحوي بني أهله الذين هم من صلبه، يتفاعل معهم في إطار العلاقات الأسرية المتعارف عليها كرابطة الأمومة، الأبوة والأخوة، إلى

1 - النشار مصطفى: الفلسفة التطبيقية، ص 352.

2 - الاستنساخ: هو إنتاج مجموعة من الكائنات الحية لها نسخة طبق الأصل من مادة الوراثة واحدة. مثل التي تحدث في الطبيعة عندما تقوم كائنات حية أخرى كالبكتيريا، الحشرات، النباتات بالتكاثر دون تزاوج، أما في مجال التكنولوجيا الحيوية (البيوتكنولوجيا) فهي العملية المستخدمة لنسخ أجزاء من الحمض النووي الريبي (DNA)، خلايا أو كائنات حية. بشكل عام الاستنساخ يعني إنشاء نسخ طبق الأصل من منتج ما كالوسائط الرقمية أو البرامج، وهناك الاستنساخ الجيني، الاستنساخ العلاجي، الاستنساخ الإنجابي.

غيرها من الروابط التي تبدأ من المنزل الصغير إلى البيت الكبير كرابطة العمومة و...، وهي روابط وعلاقات تحمل في طياتها حرمة وقدسية هذا الكيان وهو العائلة. فمن المعلوم أنّ القواعد التقليدية المصطلح عليها بالنسبة للتركيب العائلي تحمل الحلول لمشكلات المجتمع بخصوص الغريزة الجنسية أو النشاط الجنسي، تربية الأجيال، بناء الشخصية الفردية والجماعية وتنمية الشعور بالكيان الثابت، التقليل من الأمراض النفسية كانفصام الشخصية، الاكتئاب والتوحد، حتى وإن كانت التراكمات العائلية الموجودة ليست بالمقاييس المثالية المنشودة، لكنها تبقى الحصن أما الكثير من المشكلات التي يتعرض لها الإنسان خاصة فيما يتعلق برابطة الأم والطفل التي تبقى من أقدس الروابط، فلو سألت أي فرد يتيم أو ليس له أهل عن حاجته للعائلة لأخبرك عفوياً عن حاجته للأم، لكن مع المنجزات والنتائج الجديدة في مجال الهندسة الوراثية قد يصل الأمر إلى تفكك وانحلال التركيب الأسري وذلك بفعل التغيرات المتعلقة بوسائل الإنجاب، الجنس ومعايير الارتباط والزواج.

الزواج المؤسسة الأولى لبناء الأسرة:

إنّ المتعارف عليه أنّ الزواج هو الخطوة الأولى لتكوين أي أسرة في أي مجتمع، لكن ومع ظهور تطبيقات الهندسة الوراثية وما يطلق عليه باسم الزيجات المحترفة، والزيجات المؤقتة والمتعاقبة¹، أصبح من الصعب الحفاظ على الرابطة الزوجية والتي من مهامها الأساسية الحفاظ على النسل والحفاظ على العلاقة الجنسية ضمن الإطار الصحيح، وكذلك إرساء القيم الأخلاقية، وتقديم الرعاية والحنان غير المشروطين ببرنامج محدد، فالزيجات المؤقتة اليوم والتي تسمح لرجل وامرأة تم تأهيلهما لتبني طفل وتربيته تهدد وبشكل كبير عامل استقرار الأسرة. لأنّ الطفل الذي ينشأ مع أبوين لا تربطه أي صلة قرابة سيجعل منه صاحب كيان متذبذب، كذلك الزوجين الذين تم تدريبهما للقيام بمثل هذه العلاقة لن يجمع بينهما أية مشاعر أو روابط سوى وثيقة وبرنامج تأهيلي. إنّ

¹ - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، ص 98.

الجانب النفسي والشعوري له دور كبير في قيام الروابط الأسرية. والحفاظ عليها، لذلك تساهم هذه الزيجات في قتل هذا الجانب المهم، حتى وإن كانت مشروعا بيولوجيا يسعى إلى إنتاج آباء وأمّهات وأطفال بمعايير ذكاء مرتفعة ومواصفات بدنية جيدة. هل من المرغوب فيه الإنجاب خارج العلاقة الجنسية؟، الإنجاب اليوم ينفصل تماما عن الجنس، لأنه عندما ترغب امرأة ما بالحمل فإنّ زيارة معرض من معارض الأجنة يكفي لتحقيق رغبتها ما يجعل الجنين مجهول النسب، وهذه مشكلة أخلاقية كبرى. أو عندما تنتقل الأجنة من رحم إلى رحم فإننا حططنا تلك الحقيقة الثابتة أنّ مدة الحمل تسعة أشهر¹. ومع إمكانية تجميد الأجنة وامتناع المرأة عن تحرير ما في بطنها²، سينمو الأطفال في عالم تتذبذب فيه حسابات دورة الأسرة بعدما كانت ثابتة ورتيبة، فنحن نولد لنكبر ونتزوج، ثم ننجب أطفالا وهكذا، هذه هي فطرتنا. إن تجميد الأجنة وإن كان يحمل دلالات إيجابية إلاّ أنه يحمل أيضا مخاوف كبيرة، لنأخذ مثلا أن زوجين قام بحادث مرور مع طفليهما، وشاءت الأقدار أن يتوفي الأطفال ويصاب أحد الوالدين بالعقم، إلاّ أنّ قيامهما بتجميد بعض الأجنة منهما من قبل سيسمح لهما بالحصول على طفل آخر، ما يحقق لهما إعادة بناء أسرتهما من جديد وهذا أمر جيد. لكن في حالة أخرى قامت امرأة أرملة بمطالبة بنك تجميد الأجنة لإعادة زرع جنينها في بطنها وتنشئته، كونها لم تسمح لها الظروف هي وزوجها من قبل لتربيته. إن كان هذا الأمر يحمل دلالة عاطفية ونفسية كبيرة، إلاّ أنه يحمل هاجسا كبيرا هو الآخر وهو مشروع إنشاء جيل أيتام. إنّ موضوع اليُتم يؤرق الحكومات والدول خاصة مع تدني مستويات المعيشة لهذه الفئة في معظم دول العالم، لكن مشروع تجميد

1 - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، ص 98.

2 - الجابري محمد عابد: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1،

1997م، ص 65.

الأجنة وحقوق الأمهات والآباء في الحصول على أولاد متى أرادوا سيُخلف تجاوزات وأعباء كثيرة أخلاقية واجتماعية وحتى اقتصادية.

الأمومة والأبوة تغير في المفاهيم أم تعديل في الأدوار؟

الدمية التي تخيلتها طفلك وأنت صغيرة، والحلم الذي روادك عندما أصبحت شابة، وسعيت لتحقيقه بعد زواجك، سيصبح نوعاً من الأحلام التقليدية بفضل تقنيات الإنجاب الصناعي والهندسة الوراثية، لأن القاعدة الأساسية وهي الحمل ستتحطم، بعدما صار بالإمكان حضانه طفل في أنبوب اختبار، فيزول الدور الأساسي للأم وسيخرج الجنين من أحشائها الحيوية إلى أحشاء الآلة التقنية. إننا يجب أن نقر أن الحمل هو أحد أهم الغرائز التي تتحرك بداخل أي امرأة على اختلاف ثقافتها وجنسياتها، فالنساء تمتلكن طبيعة جينية قوية للحمل وهو الخطوة الأولى إن لم نقل الأساسية لتنمية شعور الأمومة. هذه القدسية التي تبعث بنفسها من صميم الحياة لأن دورة الولادة تُشبع لدى معظم النساء حاجة من أهم الحاجات الخلاقية، البيولوجية، النفسية والاجتماعية.

إن التفكير في مصير الأمومة أثار لدى مقدسي هذا المفهوم الكثير من الإشكالات، وفي هذا يتساءل العالم وايتزن Weitzen قائلاً: "ماذا سيحدث لمقدسي الأمومة في حالة كان وليد الأم ليس طفلها الحقيقي إنما هو نتاج بويضة ذات خصائص وراثية محددة وقد زُرعت تلك البويضة في رحمها؟ ماذا سيحدث عندما ترى الأجنة في معدات المختبرات البيولوجية؟ إن أهمية مستقبل النساء لن يكون بسبب قدرتهن على الحمل والإنجاب بل تهديم لقدسية الأمومة؟¹

لن يتم هدم الأمومة فحسب بفعل التقنيات البيوهنسية، وتكنولوجيا الإخصاب الصناعي، سيتم زعزعة كيان آخر وهو الأبوة. بدأ مفهوم الأبوة يتغير مع ظهور بنوك

¹ - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، ص 100.

النطاف¹ Banque de sperme، لكن تطبيقات الهندسة الوراثية توجي بزوال هذا المفهوم. مفهوم الأب الذي اعتدناه وألفناه منذ زمن بعيد، الأبوة بكل المعاني البيولوجية، النفسية، الاجتماعية، القانونية، الدينية ستقع في هوة التغيير، وحتى الزوال مثلها مثل الأمومة.

إنّ دور الأم والأب سيقصر حتما في رعاية طفلها خلال العامين الأول والثاني فقط بفعل ما تقدمه الهندسة الوراثية من آفاق. ومع تطبيقات تحسين النسل² (Eugénisme)، والتدخل في الجينات الوراثية للطفل تجعلنا ربما نرى مستقبلا أبناء حسب رغبة الوالدين بمواصفات مختارة كالذكاء، لون الشعر ولون العينين. إنّ هذا التدخل يمس مباشرة بكرامة الطفل وحقه المشروع في أن يكون على الخلق أو الصورة التي خلقه الله بها لا حسب رغبة والديه. يقول ليندبرج في كتابه التحول المقبل في العالم: "إنّ الأسرة تقترب من نقطة الانقراض التام بفعل منجزات التغيير والجدّة في نطاق تحسين النسل وهندسة الوراثية"³. انتقاء مواصفات الطفل هو تعدٍ واضح على حرية الاختيار واستقلالية الرأي لديه.

حسب يورغن هابرماس الأشخاص المعدلين وراثيا هم أشخاص مبرمجين لا يستطيعون أن يعتبروا أنفسهم صانعي قرار⁴، فتقنية تحسين النسل تسمح لأشخاص باختيار مواصفات لشخص آخر لم يولد بعد، وتعطيهم الحق في المساس بكرامته

1 - بنك النطاف: هو مرفق أو مؤسسة تُجمع وتُخزن فيها الحيوانات المنوية البشرية من المتبرعين بها، لاستخدامها بواسطة النساء اللواتي لا يُنجبن، فهو تعزيز لإمكانية الإنجاب، وتسمى عملية إدخال الحيوانات المنوية إلى المرأة بعملية التلقيح الاصطناعي.

2 - تحسين النسل: هو تطبيق أساليب ومفاهيم الانتقاء على الإنسان، وتحسين خصائصه الوراثية، من المفترض أن يساهم تحسين النسل في الحد من ظواهر الانحطاط في الجينات البشرية.

3 - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، ص 98.

4 - يورغن هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، تر جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006م، ص 45.

وقيمه، وهذا ما أطلق عليه هابرماس لفظ التلاعب بالطبيعة الإنسانية¹، وهذا نتيجة الإضافات والتعديلات التي يقومون بها على الجنين، لأنّ التدخل الوراثي قد تم بواسطة شخص آخر وليس بإرادة الشخص المعدل وراثيا. إنّ الشخص المعني سيظلّ استرجاعيا بعد الولادة على التدخل الذي قد حصل فيه قبل الولادة. وهذا الانسان سيفهم نفسه كشخص عدلت سماته الخاصة، لكنّه سيظلّ مُتماهيا مع نفسه، لأنه غير قادر على اتخاذ موقف ما اتجاه التدخل الوراثي وهو يرفض بالمقابل أن يتملك بما عُديل من شخصيته بسبب التدخلات الوراثية².

هل نحن أمام إنتاج جيل جديد من البشر؟، الأبحاث العلمية المتواصلة في مجال البيولوجيا تحمل بين صفحاتها احتمالات كبيرة مستقبلا، بأنّ يتمكن العلماء من وضع أجنة متعددة متطابقة في كل شيء تشكل نسخ جينية من شخص معين. إنّ المشكلات القانونية التي ستفرزها هذه النسخ كثيرة جدا. في حالة ما إذا تم إعطاء هذه الأجنة لسيدات يتم تأجيرهن لحملها أو وضعها داخل أنابيب، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هل ستقوم الدولة بتربية هؤلاء الأطفال؟ هل سيوزع هؤلاء المواليد على عائلات مختلفة لتربيتهم لمعرفة تأثير البيئة الاجتماعية على أطفال متطابقين وراثيا؟ هل سيكون هذا الأسلوب الأفلاطوني الذي خلقته الهندسة الوراثية بديلا عن الأسرة؟ هل

¹ - ما الطبيعة الإنسانية؟ سؤال أثار حفيظة الفلاسفة بصفة جادة في الفلسفة المعاصرة، وحتى وإن كان الحديث عنه موجودا في الفترات السابقة من تاريخ التفكير الفلسفي، إلا أنّ التطورات التقنية والأحداث العالمية خلال القرون الأخيرة دفعت إلى ظهور هذا المفهوم بشكل يوحي بوجود تهديد قوي على هذه الطبيعة. يأخذ مفهوم الطبيعة الإنسانية بشكل عام مدلولين، المدلول البيولوجي وهو ما يتبناه المدافعون عن فكرة تطوير النوع الإنساني حيث يحدسون الطبيعة الإنسانية في الجينوم، معتمدين على النظرية التطورية في تفسير ذلك. في حين يتخذ الفلاسفة وبعض المفكرين من مجالات أخرى المدلول الأخلاقي للطبيعة الإنسانية فيعتبرونها مقدسة بشكل مطلق، وأي مساس لها هو فقدان لقدسيتها وكرامتها.

² - يورغن هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، ص 76.

الهندسة الوراثية تطبيق لفلسفة المشاع الأفلاطونية؟، هل التقنيات البيوهندسية هي مشاريع دور أيتام بمقاييس علمية وعالمية جديدة؟ كل هذه التطبيقات والتي طرحت إشكالات متعددة تؤكد على أنّ حرمة الجنين أو الطفل أصبحت على المحك، خاصة مع إنجاب أجنة من أبوين وأمّين. هنا في هذه الحالة سيختلط الأمر على الأطفال من حيث نسبهم إلى من سيعود؟ وتظهر إلى السطح مشكلة دينية وأخلاقية مهمة وهي اختلاط الأنساب، ومشكلة أحقية الأبوة والأمومة والتي تفرز تبعات قانونية أخرى. أم هل نحن أمام انفلات جديد وهو "إنسان متعدد الأنساب"¹

إنسان متعدد الأنساب والتداعيات الدينية والأخلاقية:

تأخذ مشكلة النسب مكانة كبيرة في البحث الديني، وتعد مشكلة عويصة بالنسبة لجميع الأديان، خاصة إذا تعلق الأمر بأحقية النسب وإثباته. فلنأخذ المثال السابق إنجاب طفل من أبوين وأمّين، وهو أنّ نأخذ من رحم امرأة بويضة ملقحة من مني زوجها، وبويضة ثانية من امرأة لقحت هي الأخرى بمني زوجها، ثم تجمع البويضتان مخبريا عن طريق اختبارات الهندسة الوراثية فلتكونا معا كتلة لحمية، وتزرع في رحم امرأة ثالثة لينشأ الجنين في أحشائها وينمو ويولد بعدها. نحن الآن أمام طفل لديه ثلاثة أمهات وأبوين، الأمر الذي يجعلنا نطرح مجموعة من التساؤلات الدينية، القانونية والأخلاقية، منها: من هي أمّه الحقيقية من بين امرأتين أخذت منهما البويضتان، أم أنها المرأة الثالثة التي زُرعت في رحمها الكتلة اللحمية الناتجة عن تجميع البويضتان؟ من أبوه الفعلي؟، إذا حاولنا نجيب بيولوجيا فهو من ثلاث أمهات وأبوين اثنين. نتيجة توجي لنا بحدوث سابقة من نوعها في مجال تكنولوجيا الإخصاب والتكاثر، ومظهر يؤكد لنا وجود تغير سيحصل في سيرورة الحياة الإنسانية، هو حدث استثنائي في تاريخ البشرية، أنّ يولد طفل بهذه الطريقة، جنين من ثلاثة أمهات وأبوين. سؤال آخر من له الحق في

¹ - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، ص 99.

تربيته وتنشئته؟، ناهيك عن أمور أخرى تتعلق بالميراث والتكفل. المشاكل القانونية التي سيفرزها هذا الوضع كثيرة منها، من هو المسؤول عن الحكم في هذه القضايا؟ على أي من القواعد والمواد القانونية سيستند للفصل فيها؟ هل توجد نصوص ومواثيق عالمية تحتوي على مثل هذه المواد؟، وهذا كله دون الكلام عن إمكانية استغلال مثل هذه الأجنة في خلق شخصيات خارقة؟ أو ما الذي يثبت لنا أن مثل هؤلاء الأطفال سيولدون بصحة جيدة خالين من أي مرض؟ ماذا لو كانت نتيجة مثل هذا التجميع ولادة أشخاص مشوهين أو مرضى نفسيين؟

إنّ هذه التقنية وهذا التحول ليست ضرباً من الخيال، فقد تمكنت العالمة ميميز الأخصائية البيولوجية بمعهد بحوث السرطان بفيلا دلفيا من إنتاج ما أطلق عليه وصف "الفئران متعددة النسب" وهي فئران تنتمي إلى أكثر من أبوين، فقد أخذت أجنة من رحمي فأرتين حاملتين ووضعتهما في صحيفة من صحائف المختبر، وتعهدهما بالعناية والتغذية حتى صارتا كتلة إنجاب واحدة، ثم زرعتهما في رحم فأرة ثالثة، وهكذا...ولدت فئران تحمل الصفات الوراثية لكل من زوجي الفئران المانحين _الواهيين، وكانت للفئران الوليدة فراء وشوارب داكنة على الجانب الآخر، بينما تغطى أجسامها بخطوط متبادلة من الشعر الأبيض والشعر الداكن، لقد بلغ عدد الفئران التي نشأت بهذه الطريقة سبعمائة فأر وفأرة، أنتجت بدورها أكثر من خمسة وثلاثين ألف فأر¹.

إنّ من يقرأ مثل هذه الأمثلة وأخرى يعتقد أن الأمر نوع من الخيال العلمي، أو الخرافات التي لا يمكن أن تتحقق. في حين أنّها وفي العالم الغربي خصوصاً ومع تزايد الأبحاث في مجال الوراثة أصبح الأمر واقعاً، حتى وإن كان الكلام في هذا الأمر في بلادنا العربية نوعاً من الافتراضات فقط، ومع هذا نجد اهتمام الدول الإسلامية بهذا النوع من الأبحاث تجلّى في عقد مؤتمرات إسلامية وندوات فقهية للبحث والمناقشة في هذه

¹ - الحفار محمد سعيد: البيولوجيا ومصير الإنسان، ص 101.

المسائل، وقد عبر رجال الدين والفقهاء المسلمون عن قلقهم إزاء الوضع الذي يمكن أن ينتج جراء تطبيقات الهندسة الوراثية خاصة فيما يتعلق الأمر بحفظ النسل، والذي يعتبر من الأولويات الدينية والمقاصد الشرعية الإسلامية إضافة إلى حفظ العقل والنفس. ففي الكثير من المواضع دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أهمية التراكيب العائلية وحثت على ضرورة الحفاظ عليها. ما يجعل من الحلول والأحكام التي يصدرها الفقهاء إزاء التجاوزات التي تحدثها هذه التطبيقات، تتخذ الطابع الديني وهذا استناداً إلى مرجعيتهم الإسلامية. لكن أين هو دور المفكرين والأطباء في عالمنا الإسلامي، لأنّ المسألة ليست مقصورة في أحكام فقهائنا، إنّما الأمر يتطلب المشاركة الفاعلة من أجل الحفاظ على البنية الأسرية في مجتمعاتنا التي ما ستفتأ تتأثر بهذه المنجزات.

" ومن ثمة فإنّ مهمة الفقهاء هنا هي التأكد من أنّ هذه التطورات لن تخالف الشرع، إذ يرى المُشرعون أنّه إذا خرج العلماء والأطباء بأي رأي أو اكتشاف علمي جديد فلا يكون هذا الاكتشاف أو الرأي صحيحاً إلاّ إذا وافق ما جاء في القرآن والسنة، وإذا تعارض أي اكتشاف أو أي رأي علمي مع القرآن والسنة فلا يكون حقاً¹. ولكن إذا لم يكن القرآن والسنة قد ذكرا شيئاً عن مثل هذه التطبيقات فإنّ الفقهاء سيستندون إلى وسائل فقهية أخرى كالاجتهاد والقياس. إن رجال الدين المسلمين لم يرفضوا الهندسة الوراثية جُملةً، لأنها ذات إيجابي كبير جداً خاصة عندما يتعلق الأمر بتخليص الإنسانية من الأمراض والعايات، وكذا إيجاد حلول للمشكلات المناخية والأوبئة والفيروسات التي تفتك بالبشر. ومن جهة أخرى اعتبروها آفة في نفس الوقت إذا لم يتم التحكم في نتائجها وتقييد ميادين تطبيقاتها. فتغيير التركيب الوراثي والاستنساخ البشري، وتهديم التراكيب الأسرية وتغيير القيم الاجتماعية هو مساس بقدسية الإنسان وتغيير في خلق الله. " أكد الدكتور عبد الستار أبو غدة أنّ محاولة تغيير

¹ - البقصي ناهدة: الهندسة الوراثية والأخلاق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،

1993م، ص 181.

الخلقة وتبديل فطرة الإنسان والعبث بتركيبه الوراثي، والسيطرة عليه وتسخيره للغايات الشريرة، هو مخالفة صريحة للسنن الإلهية وللفطرة التي فطرنا الله عليها، إذ أن أي محاولة لتغيير خلق الله ماهي إلا استجابة لما يأمرنا الشيطان¹، >> وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا(117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا(118) وَ لَأُضِلَّهُمْ ولَأُمَيِّتَهُمْ وَ لَأْمُرَهُمْ فَلَئِبَتَكُنَّ ءَاذَانِ الْأَنْعَامِ وَ لَأْمُرَهُمْ فَلَئِعْبِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا(119)>>². هذه الآيات وأخرى نص صريح وقطعي برفض التدخل في تغيير وتبديل في القيم الاجتماعية والروابط الأسرية التي حث الإسلام على الحفاظ عليها، وجعل لها قواعد تمثلت في أوامر ونواهي تؤسس لها وتحفظها، ونجد هذه القواعد في مختلف السور والآيات القرآنية تتحدث عن حقوق الطفل، وعن الأمومة والأبوة وغيرها من الكيانات الأسرية التي تبنى عليها المجتمعات.

حتى رجال الدين المسيحيون، وقفوا موقف الضد من تطبيقات الهندسة الوراثية خاصة فيما يتعلق بتغيير الخلقة البشرية، والمساس بقدسية الإنسان وحياته، وتنصيب العلماء أنفسهم على أنهم بمثابة الرب. والأكيد أن الدول الغربية هي القاعدة الأولى لمختلف الأبحاث العلمية الجديدة، لذلك فإن اللاهوتيين المسيحيين مبني على أحكام مؤسسة فرقوا فيها بين تجارب مسموحة وأخرى مرفوضة، ونظرا لهذا الموقف تم إشراكهم في اللجان الأخلاقية المتخصصة في مناقشة وتقييم تطبيقات الهندسة الوراثية والاستنساخ الحيوي وكل ما يمكن أن يترتب من نتائج من خلال التقنيات البيولوجية الحديثة. "وقبل أن يصدر رجال الدين المسيحيين أحكامهم كان عليهم أن يحددوا ما الذي يقصدونه بالتجارب المرفوضة، وفي سبيل ذلك فرقوا بين نوعين من التجارب: الأولى أهدافها علاجية يقصد منها تخليص الإنسان من العيوب الوراثية

¹ - البقصي ناهدة: الهندسة الوراثية والأخلاق، ص 182.

² - القرآن: سورة النساء، الآيات 117، 118، 119.

وتقديم العلاج لتخليصه من الأمراض مثل الأنسولين ومرض السكر، مثل هذه التجارب تعتبرها المسيحية تجارب لصالح الإنسان، ولا تعترض على العمل فيها، إذ أنّها ليست تدخلًا في مشيئة الربّ، لأنّ الأمراض ليست جزءًا من الغايات الإلهية من خلق هذا العالم، كما يعتقد بعض المسيحيين. أمّا النوع الثاني من التجارب، والذي يرفضه رجال الدّين رفضًا تامًا، فهو الذي يهدف فيه العلماء إلى خلق صورة جديدة من صور الحياة، كأنّ يُحاول العالم تغيير التركيب الوراثي للإنسان بحيث يسلك سلوكًا معينًا يجعله غير حر وتحت سيطرة الآخرين، أو أن يُقوي فيه صفات معينة وأن يُضعف أخرى. ويُقدم اللاهوتيون المسيحيون ثلاثة اعتراضات رئيسية على مثل هذه التجارب وهي اعتراضات ضد التحكم الوراثي في الإنسان ويعتبرون هذا النوع بمثابة خطيئة كبرى تتمثل في القيام بدور الإله، وما ينجر عن ذلك من تغير في المفاهيم والعلاقات الاجتماعية والإنسانية. وثانيا اعتراضات تتمحور في الخوف من أن ترتكز هذه المعرفة في أيدي غير آمنة، فتصبح هذا أساليب ضغط وتحكم في البشر من طرف فئة ديكتاتورية متسلطة. وثالث الاعتراضات يتمثل في الخوف من تخليق جرثومة لا يمكن السيطرة عليها فتساهم في القضاء على النوع الإنساني وإفناؤه¹. مثل هذه المخاوف من التطبيقات البيوهندسية دليل على أنّ الإنسان كائن له قدسيته، التي خصه بها الله ومن واجب العلماء بصفتهم مسؤولين عنها الحفاظ على هذه القدسية.

هندسة الوراثة ليست حديثًا عن هندسة البناء والمعمار، فهي بفضل نجاحها في مجال الزراعة والنبات، وفي ميدان زراعة الأدوية والمركبات الكيميائية وإيجاد العلاجات لأمراض عديدة، تعززت قيمتها وأهمية استخدامها في مجال البحث العلمي والتكنولوجي، الأمر الذي جعل منها مصدر أمل للعلماء والباحثين وحتى العامة من الناس لتغيير الكثير من مشاكل الإنسانية. لكن هذا الأمل والمصحوب بطموحات متعالية أثار الخوف لدى الكثير من الفلاسفة وبعض العلماء، لما يحمله الأمر من

¹ - البقصي ناهدة: الهندسة الوراثية والأخلاق، ص 190.

تهديد لحياة الإنسان وقدسيتها، ومساس بالطبيعة البشرية وكرامتها، وتغيير التراكيب الاجتماعية والأسرية. إنَّ تشكيل الإنسان حسب معطيات بيولوجية منتقاة، وتعديل الجينات الوراثية هو مجاوزة للطبيعة الإنسانية على حد تعبير فرانسيس فوكوياما، الذي اعتبر أن: <<فكرة مجاوزة الطبيعة الإنسانية Transhumanisme هي الفكرة الأخطر في العالم>>، لأنَّها فكرة تهدد مفهوم الطبيعة الإنسانية الذي هو أمر أساسي من حيث أنه يقدم أساساً مفهوماً أو تصورياً صلباً لتجربتنا من حيث أننا نوع. وهذه الطبيعة هي بجانب الدين ما يحدد قيمتنا الأكثر أساسية. فتعديل المعطيات البيولوجية الأساسية لأفراد النوع معناه <<نهاية الإنسان>>¹

إنَّ أسوأ بيت خير من أجمل روضة أطفال كلمات تعبر بوضوح عن ذلك الإيمان القوي لكل مجتمعات العالم بأنَّ الأسرة ممتص الصدمات العملاق كما يسميها محمد سعيد الحفار، هي المكان الذي يأوي فيه الأفراد من صراعاتهم، ويرتاحون فيها من متاعهم، إنَّما تقترب من نقطة الانقراض التام بفعل منجزات الثورة البيولوجية، فنحن اليوم لا ننكر الدور الفعال والكبير الذي تقدمه الهندسة الوراثية في حل المشاكل المستعصية للبشرية عامة. لكن تطبيقاتها المتسارعة في التطور غيرت المفاهيم وضربت بقيم الإنسان وكياناته التي بنيت عليها المجتمعات وقام عليها تاريخ البشرية، هذا ما جعل الفلاسفة يتدخلون لمحاولة إقامة التوازن بين القيم الأخلاقية وتطورات الهندسة الوراثية والحد من التجاوزات البيوتكنولوجية من خلال البيواتيقا. لأنَّ النتائج البيوهندسية تؤكد وبشكل واضح أنَّ العالم يسير نحو زوال الروابط الأسرية، وبصورة توحى باغتراب الإنسان عن نفسه وعن كيانه الأسري، وعن إنسانيته.

¹ - سبيلا محمد: الثورة البيوتكنولوجية المعاصرة وآفاقها الفلسفية، ص 05.